مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الحب العذري.. والطريق إلى الحب الإلهي

محمد أحمد الصغير علي عيد
باحث مصري

2024

- **بحث محكم**
- **قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية**
- 27 ماي 2024

جميع الحقوق محفوظة © 2024

الحب العذري.. والطريق إلى الحب الإلهي

الملخص

الإنسان العربي إنسان عاشق، مجنون حبّاً وتخيّلاً، سواء تعلق الجنون بامرأة أم بالحب الإلهي، كما في شعر التصوف الذي هو شكل من أشكال التسامي والتعويض عن حب دنيوي فان بابتداع عشق أبدي.

والجدير بالذكر، أن شعراء الصوفية لم يتأثروا بغرض من أغراض الشعر العربي كما تأثروا بالشعر العذري [العفيف]، وكان لهذا الغرض الشعري حضور قوي في الشعر الصوفي، حيث استخدم الصوفيون مصطلحات العذريين وأساليبهم، بل ألفاظهم وصورهم عينها. فلا يجد الشاعر أمامه إلا لغة المحبين المتيمين بكل أشكالها وقوالبها الفنية، فيصورون مشاعرهم وأخيلتهم، وقد أحالوها إلى مصطلحات رمزية صوفية عرفانية بعيدة عن عالم الحس لا يعرفها ولا يتذوقها إلا من خاض التجربة الصوفية.

وما المحب العذري إلا صوفي خالص، صوفي في ظمئه الذي لا ينتهي إلى رؤية الحبيب ولقائه، وصوفي في تغنيه بعشقه الجامح الذي يملك كل قلبه وكل أهوائه وعواطفه ومشاعره.

وعليه، فالعلاقة بين الشاعر الصوفي والشاعر العذري علاقة مشابهة في الإخلاص والتوق للمحبوب؛ فكلاهما يصل إلى درجة الفناء في محبوبه، وكلاهما نهج المنهج نفسه، منهج المتعففين من العشاق، ونعلم ما بين العفة في الحب وبين الزهد من تشابه، فكلاهما يترفع عن الغريزة الهابطة ويتسامى بشعوره؛ فالعذري يتعلق بمحبوبته تعلقاً مثالياً، والصوفي ترتقي نفسه تأملا، حتى إذا فاض عليها الإشراق، تحققت بأن الله هو المعشوق الأول.

مقدمة:

نتحدث كثيراً عن الحب في حين أننا لا نعرف عنه شيئًا، ولا يشارك المحبَّ شعورَه إلَّا من ذاق مرارة الهوى وحلاوته، وجرَّبَ ويلاته ولذَّاته. وما الحب إلا شَرَك تنصبه الطبيعة للبشر؛ فلذا يجب على المرء أن يراعيَ جانب الاعتدال في الحب، فإن العاطفة العنيفة لا تدوم، والإسراف في الحب أقرب إلى الحماقة.

ولو نظرنا إلى العالم مَليًّا لألفَيْنا أنه لا شيء يدير عجلة الكون غير الحب؛ لأننا في الواقع نحيا في هذا العالم عندما نحب، ولولا الحب ما عُرف الخالق. فالحب إذن كلمة جميلة مغرية، محبوبة إلى السمع؛ فهو الذي يمنحنا في الأرض ما نطمح إليه في السماء[1].

لا ريب في أن الكلام عن الحب لذيذ كطعم الحب نفسه، بيد أن الكلام عن الحب شيء، والوقوع فيه شيء آخر. ومن ذاقوا الحب يجاهرون بأن ألذَّ أنواعه أكثرُها ألمًا وتبريحًا. قد يكون هذا صحيحًا، وربما يكون العكس هو الصحيح؛ فالحبُّ يبدأ باختيار الإنسان، غير أنه ليس له يد في نهايته. إنه عَلاقة بين سيد وعبد، فالسيد يريد أن يكون عبدًا، والعبد يرغب في أن يُصبح سيدًا[2].

وليس من ريب في أن الحب العفيف الذي يصور صفاء القلب وطهارة الضمير كما يصور احتمال الآلام والمشقات في صور رائعة من الوجد ليس من ريب في أنه هو الذي أعد فيما بعد لظهور الحب الصوفي، فقد وجد فيه الصوفية نبعا لا ينضب ولا يجف لمواجدهم إزاء الذات الإلهية، بل وجدوا فيه خير ما يعبر عن لواعج الشوق المستعرة في حنايا صدورهم وما قاسوا في حبهم من صنوف الآلام والبلايا والمحن[3].

وما المحب العذري إلا صوفي خالص، صوفي في ظمئه الذي لا ينتهي إلى رؤية الحبيب ولقائه، وصوفي في تغنيه بعشقه الجامح الذي يملك كل قلبه وكل أهوائه وعواطفه ومشاعره، وصوفي تعييه الحيلة وتعوزه الوسيلة إلى لقاء بالمحبوب، وإنه ليسير في طريق لا نهاية لها ولا سبيل إلى الدنو من غايتها إلا بإسلام الروح، وصوفي في ارتفاعه عن كل صغائر الحياة، لعله يقرب من قدس الأقداس، وصوفي في ابتهاله وذله وضراعته، وما أشبه شعره بالتراتيل الدينية. لذلك كله لا نغلو إذا قلنا إن هذا الحب العذري هو الذي أتاح لنا هذه الثروة البديعة من الحب الصوفي السامي.

وقد دفعني إلى كتابة هذا البحث المتصل بأحاديث الحب والصبابة أني وجدت الشباب يقبلون ويندفعون على قراءة قصص الحب إقبالاً شديداً، برغبات شتى ودوافع متعددة، غير مفرقين في هذا الإقبال وهذا الاندفاع

---

1 أمين سلامة: الحب في الميزان، مؤسسة هنداوي، 2022م، ص19

2 المرجع السابق، ص20.

3 شوقي ضيف: الحب العذري عند العرب، الدار المصرية اللبنانية، 1999م، ص23

بين الجيد منه الذي يسمو بالأحاسيس والمشاعر السامية، وبين الرديء الذي تطغى فيه الغرائز الغليظة وتجمح الأهواء والعواطف في غير تردد ولا خجل ولا استحياء.

وشبابنا معذور في قراءة ومشاهدة أنواعاً من قصص الحب لا تسمن ولا تغني من جوع، بحكم رغبته في الاطلاع، ولما فيه من غرابة، وغرائب الأفعال. ومن هنا، رأيت ضرورة أن أعرض عليهم نوعاً من الحب الرفيع السامي وتجربة حية من تجارب الحب العذري العفيف. الحب الذي عاشه أسلافنا في عصورهم الإسلامية الأولى، حب ليس فيه إثم ولا جناح ولا فسوق ولا حرج ولا خيانة ولا عار ولا خطيئة ولا ريبة، إنما فيه الوفاء والصفاء والعفاف والطهر والنقاء. وفيه كان يحتفظ المحبون بكرامتهم مهما ألح عليهم الحب ومهما اصطلوا من نيرانه واحتملوا من خطوبه، حتى إنهم يموتون شهداء في سبيله، وفيه تحتفظ الفتاة بجلالها ووقارها مع رقة العواطف ورهافة المشاعر ومع البر والحنان والإشفاق، ومع العشق والصبابة والهيام.

أولاً- الحب العذري: معناه وخصائصه

◄ **الحب لغة واصطلاحا:** الحب لغة نقيض البغض والحب الوداد والمحبة. والحبُّ من حَبَبَ[4]، ويقال: «حبَّب الشيء إليه: جعله يُحبَّه. قال تعالى: }**وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإيمان**{، وتجمع على أحبّاء وأحبَّة وهي حبيبة»[5]، وفي القرآن: ورد الحب في أكثر من سبعين موضعا[6]، وقد دعا الله الناس إلى حبّه؛ لأنه إله فقال تعالى: }**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ الله**{ (البقرة: 16). والله يحبُّ الإنسان لأسباب: لصفة فيه، كالإحسان، والتوبة والتطهر والتقوى والصبر، والتوكل، والإقساط، والقتال في سبيله، ولإتباعه لرسول اللهr ودون الإشارة إلى سبب استحق به العبد هذه المحبة[7].

ويمكن تعريف الحب بأنه إعجاب وانجذاب نحو شخص معين، وكما قال العلماء: هناك هرمون يفرز في حالة الحب اسمه «الاوكسيتوسين»، «هرمون المحبين»، وطبعا يزيد أثناء تواجد الطرفين معاً!

◄ **العِشْقُ في اللغة:**

العشق في اللغة هو فَرطُ الحبِّ. ورجلٌ عشِّيقٌ، أي كثير العشْق. والتَعَشُّقُ: تكلُّفُ العشق[8]. وورد في لسان العرب: «سئل أَبو العباس أَحمد بن يحيى عن الحُبِّ والعِشْقِ: أَيّهما أَحمد؟ فقال: الحُب، لأن العِشْقَ

4 جمال الدين محمد ابن منظور: لسان العرب، الطبعة الثالثة، المجلد الأول، دار صادر، بيروت، د.ت، ص 290

5 إبراهيم مصطفى مذكور وآخرون: المعجم الوسيط، مادة حب، الجزء الأول، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص: 151

6 محمد فواد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص 191

7 سعاد الحكيم: المعجم الصوفي، الطبعة الأولى، دندره للطباعة والنشر، بيروت، 1980، ص301

8 ابن منظور: لسان العرب – دار المعارف – القاهرة، ص65

فيه إفراط، وسمي العاشقُ عاشِقاً لأَنه يَذْبُلُ من شدة الهوى كما تَذْبُل العَشَقَةُ إذا قطعت، والعَشَقَةُ: شجرة تَخْضَرُّ ثم تَدِقُّ وتَصْفَرُّ»[9].

وقد رتب الثعالبي مراتب الحب في فقه اللغة كالتالي؛ أول مراتب الحب: الهوى، ثم العَلاقة وهي الحب اللازم للقلب، ثم الكَلَف وهو شدة الحب، ثم العِشْق وهو اسم لما فضل عن المقدار الذي اسمه الحب، ثم الشَّعَف وهو إحراق الحب القلب مع لذة يجدها، وكذلك اللوعة واللاعج، فإن تلك حرقة الهوى... ثم الشَّغَف وهو أن يبلغ الحب شغاف القلب وهي جلدة دونه، وقد قرأنا جميعاً: شغفها حبًّا وشعفها. ثم الجوى وهو الهوى الباطن، ثم التتيم وهو أن يستعبده الحب، ومنه سمي تَيم الله أي عبد الله، ومنه رجل متيّم، ثم التَبَل وهو أن يسقمه الهوى ومنه رجل متبول، ثم التدليه وهو ذَهاب العقل من الهوى ومنه رجل مدلّه، ثم الهُيوم وهو أن يذهب على وجهه لغلبة الهوى عليه ومنه رجل هائم[10].

والجدير بالذكر، أن التراث العربي قد عنى بقضايا الحب عناية فائقة نقف عند ابن حزم الذي لطالما قدم توصيفا بارعا لحالات النفس العاشقة وجماليات الوصل، يقول في باب الوصل: «**ولولا أن الدنيا دار ممر ومحنة وكدر، والجنة دار جزاء وأمان من المكاره لقلنا أن وصل المحبوب هو الصفاء الذي لا كدر فيه، والفرح الذي لا شائبة فيه ولا حزن معه وكمال الأماني ومنتهى الأراجي ولقد جربت اللذات على تصرفها وأدركت الحظوظ على اختلافها فما للدنو من السلطان ولا المال المستفاد ولا الوجود بعد العدم ولا الأوبة بعد طول الغيبة ولا الأمن بعد الخوف والنزوح عن الآل من الموقع في النفس ما للوصل ... وما ايراق النبات بعد القطر ولا إشراق الأزاهير بعد إقلاع السحاب السواريات في الزمان السجس، ولا خرير المياه المتخللة لأفانين النوار، ولا تأنق القصور البيض قد أحدقت بها الرياض الخضر، بأحسن من وصل حبيب قد رضيت أخلاقه، وحمدت غرائزه، وتقابلت في الحسن أوصافه وأنه لمعجز السنة البلغاء ومقصر فيه بيان الفصحاء**»[11]، وصل الحبيب في الدنيا يمثل كل السعادات في الدنيا كما أخبر بذلك ابن حزم الظاهري، وللحب العذري في تاريخ العربي القديم قصص لا تعد ولا تحصى حتى صار بطاقة هوية تعرف بها بعض القبائل نفسها «قال سعيد بن عقبة الهمداني الأعرابي: ممن أنت؟ قال من قوم إذا عشقوا ماتوا. قال: عذري ورب الكعبة!»[12].

◀ **تعريف الحب العذري:** الحب العذري هو نوع من الحب الذي يتميز بالنقاء والبراءة والعفة. ويشير إلى حب خالٍ من الشهوة الجسدية والعلاقات الجنسية.

---

9 الثعالبي: فقه اللغة، ص302

10 العربي حسن درويش: قضية الحب العذري في شعر بني أمية. مكتبة النهضة المصرية 1990م، 307

11 ابن حزم الأندلسي: طوق الحمامة في الألفة والألاف، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، رغاية، الجزائر، 1988، ص ص95-96

12 السراج جعفر بن أحمد: مصارع العشاق، ج2، دار صادر، بيروت، لبنان، ص 186

يرتبط الحب العذري بالاحترام المتبادل والتقدير العميق بين الشريكين، ويتمحور حول التواصل العاطفي والروحي. ففي الحب العذري، يركز الشريكان على الروابط العاطفية والروحية التي تجمعهما، ويسعيان لتعزيز هذه الروابط من خلال التفاهم والمشاركة العميقة.

ويتميز الحب العذري بالاهتمام بالشخصية والنمو المشترك، ويشمل التفاني والعطاء الذي يعكس مستوى عالٍ من الحب والرغبة في سعادة الشريك من دون التركيز على الجوانب الجسدية. وتعد العفة والاحترام والتقدير العميق أساسًا للحب العذري، حيث يتم تشجيع الشريكين على تطوير روابطهما العاطفية والروحية من خلال التواصل الصادق والاهتمام المتبادل. فالحب العذري يحمل القدرة على بناء علاقة متينة وعميقة تستمر طويلاً وتعزز السعادة والتوازن العاطفي لكل من الشريكين.

مهما كانت المفاهيم والتعاريف تختلف بين الأشخاص، إلا أن الحب العذري يتسم بالنقاء والاحترام والتواصل العاطفي العميق. إنه تعبير عن رغبة في الاحتفاظ بالنقاء والبراءة في العلاقة العاطفية وتركز على الروابط العميقة بين الشريكين.

ثانياً- نشأة الحب العذري:

لم ينشأ الحب العذري عند العرب متأثراً بثقافات أجنبية، وقد أخطأ من حاول أن يَزُجَّ آراء وأفكار الفلاسفة اليونانيين في نشأة الحب العذري عند العرب. ففلاسفة اليونان أدخلوا الحب في أساطير وخرافات آلهتهم، ولهم آراء شاذة في الحب. فأفلاطون قال إن هناك حبًّا سماويًّا وحبًّا أرضيًّا، فالسماوي يتعلق بالروح لا الجسد. ولا يحفل باللذة، بل بالنفس والعقل.

وظهر الحب العذري عند العرب أولاً في البادية في منتصف القرن الأول للهجرة. ولا يمكن أن تكون البادية المعزولة عن المدن قد تأثرت بالفلسفة اليونانية، بل من المستحيل أن تتأثر البادية بالحياة الفكرية والفلسفية، وهي في عزلتها الصحراوية عن الحواضر، وما يجري في العواصم والمدن المتحضرة من نشاط علمي. والواقع أن العرب لم يعرفوا فلسفة اليونان وأدبهم إلا في العصر العباسي، أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجري، حيث قامت حركة الترجمة في ظل الخليفة المأمون وتشجيعه. أما الحب العذري، فإنه عرف في الأدب العربي، واشتهر قبل ذلك بقرنين أو يزيد.

وقد أجمع المؤرخون للأدب العربي على أن الحب العذري نشأ في البادية لا في المدن والحواضر، حيثُ الانشغالُ بالحكم والسياسة في تأييد الحكم الأموي في الشام، والمعارضة والتربص به والثورة عليه في العراق.

«أما في الحجاز فقد اقتضت السياسة الأموية أن تقصيه عن السياسة، وأتاحت ... حياة اللهو والعبث بما أغدقت عليهم من طائل الأموال، وما شحنت به بيئاتهم من وسائل اللهو»[13].

وقد اختلف المؤرّخون والكتّاب حول نسبة شعر الحب العُذري إلى قبيلة عذرة لوجود شعراء عُذريّين من قبائل أخرى. كما اختلفوا أيضاً حول ماهيّة العفّة وطبيعة العلاقة بين الشاعر العُذري ومحبوبته وصحّة نَسَب بعض الشعراء. لكنهم اتّفقوا على أنه شعر ذو نكهة خاصة ذاع وانتشر أكثر من أيّ وقت مضى أوائل عهد الدولة الأموية بعيداً من النزاعات السياسية[14].

إن «علاقة العُذري بالمرأة علاقة تركيبية في مضمونها لم يستطع العُذريّون الإفصاح عنها بجُرأة لتعذّر وصولهم الجنسي ولعدم قدرتهم على التملك لخاصيّة الجنس، وبما أن المرأة التي أحبّوا تعود ملكيّتها للغير، فإن العُذري سيخرج من هذا الحَرَج الجنسي الذي يشكّل له توتّراً كبيراً ليصرفه في انفعالات عاطفية»[15].

وقصص العشّاق العُذريين كثيرة لكن ما يربط جميعها هو الحزن والكآبة وآلام الفِراق وصعوبة الوصل بين المُحبّين نتيجة لظروفٍ قاهرةٍ مُتعدّدة، وكثيراً ما تنتهي هذه القصص بموت العاشقين حُزناً.

وسوف نأخذ نموذج ليلى والمجنون كنوع من أنواع الحب العذري لتقريب الرؤية إلى ذهن القارئ الكريم.

ثالثاً-أسطورة ليلى والمجنون نموذجاً:

تتشكل أسطورة المجنون ومن ورائها أسطورة ليلى عبر محوري المكان والزمان لتنشأ فلسفة جديدة في الحب العذري، فلسفة في الحب العفيف الطاهر البريء، رغم ما فيه من معاناة وألم، فلسفة لتبذير الذات في سبيل الآخر. وفي كل هذا يلاحظ القارئ أن ليلى هي كل متخيل المجنون وكل محسوسه. ليلى هي كل الأمكنة، كل الأزمنة، كل الحياة، كل اللغة وكل الشعر. فالمتتبع لشعر المجنون والمرويات التاريخية بشأنه مع ليلى والتي تبدو طريفة حدّ المأساة. يشعر أنه في جو أسطوري لا علاقة له بالحقيقة أو أنه بشأن رواية مجازية ساحرة تستقصي الخيالي الجميل والمستحيل المدهش فقط.

ويتساءل القارئ في ظل هذا الفضاء من الذي أسطر الآخر: ليلى بسحرها جعلت من رجل بدوي عابر في الحياة شاعرا كبيرا أم المجنون بحسه الشعري الرقيق وبخياله العربي التضخيمي جعل ليلى الفتاة الشبيهة بكل الفتيات العربيات أسطورة، امرأة ولا كل النساء؟ أورد الزبيدي في تاج العروس عن الأسطورة ما معناه: «يقال:

13 ابن القيم الجوزية: روضة المحبين.

14 محمد الواوي: الحب عند العُذريّين: الموت أسهل من فِراق الحبيب، مقال منشور على موقع الميدان بتاريخ: 2021/7/6م.

15 عبد الله شاهر: البُعد الاجتماعي للحب العُذري، دار معد للطباعة والنشر والتوزيع-دمشق، ١٩٩١م.

هو يسطر ما لا أصل له، أي يؤلف، يقال سطر فلان على فلان إذا زخرف له الأقاويل ونمقها»[16]، لعل الرغبة في «التنميق» والاستعاضة عن لذة الفعل بلذة القول كان وراء خلق فضاء للخرافة والبطولة في آن واحد. خرافة المحكي عنه وبطولة الحاكي، لكن الأكيد أن الوضع الاجتماعي العربي الذي يقف ضد تزويج البنت لمن شبب بها كان العامل الأهم على الإطلاق في خلق أسطورة الشاعر العاشق والمرأة المعشوقة إلى حد الموت، ما إن تجدّر حب ليلى في الفؤاد حتى استيقظت عوامل المنع وغذت ليلى محرمة على المجنون، غذت نارا في القلب ورمادا في جغرافيا الشاعر أو ماء منفلتا بين أصابعه:

فأصبحت من ليلى الغداة كقابض على الماء خانته فروج الأصابع[17]

هذا الانفلات هو الذي أسس لبلاغة ليلى حيث صار امتلاكها الوحيد يتم عبر النص، بالقول الشعري فقط يلتحم المجنون بليلاه، وبالقول الشعري فقط يؤجل المتكلم موته شوقا واختناقا، والتأجيل لا يعني الشفاء التام «سيظل السم الذي في الترياق مصاحبا للترياق، حيث إن المتداوي لن يشفى، بل إنه سيؤجل موته ويديم علته، سيعيش في حلقة مفرغة: الداء ينقله إلى الدواء، والدواء ينقله إلى الداء، وفي هذه الدائرة مكان للشعر»[18]، من ذلك المكان يعلن المجنون:

فما أشرف الأيفاع إلا صبابة ولا أنشد الأشعار إلاّ تداويا
وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كل الظن أن لا تلاقيا
لحى الله أقواما يقولون إننا وجدنا طوال الدهر للحب شافيا[19]

ليس الشعر والحال هذه، ترفا كلاميا لكنه وسيلة حياة، الأمر الذي يدخله أيضا في باب الأسطورة، والمجنون يعي ذلك جيدا فربما هذه الوسيلة هي التي جنبته الجنون رغم كنيته بذلك:

يقولون مجنون يهيم بذكرها ووالله ما بي من جنون ولا سحر
إذا ما قرضت الشعر في غير ذكرها أبي- وأبيكم- أن يطاوعني شعري[20]

ينفي المجنون عن نفسه أن يكون مجنونا، أو مسحورا ليؤكد أنه فقط عاشق وأنه عاطل عن بقية الحياة، الحياة التي لا توجد فيها ليلى كيانا أو قولا شعريا.

16 مرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، مج 6، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1994، ص 519

17 يوسف فرحات: ديوان المجنون، ديوان مجنون ليلى، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 2003، ص135

18 رجاء بن سلامة: العشق والكتابة، ص 194

19 يوسف فرحات: ديوان المجنون، مرجع سابق، ص203

20 نفسه، ص104

******

أحبّ قيس بن المُلوّح - قبل أن يصبح مجنوناً - ليلى، وهي أحبّته بعد أن اختبرته ذات مرة، وعندما شعرت بحبّه لها، أنشأت تقول:

كلانا مُظهر للناس بُغضاً
وكلٌ عند صاحبه مكينُ
تُبلغنا العيون بما أردنا
وفي القلبين ثَم هوىً دفينُ

كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني وغيره من كتب الأدب القديمة: «لما شهر أمر المجنون وليلى وتناشد الناس شعره فيها، خطبها وبذل لها خمسين ناقة حمراء، وخطبها ورد بن محمّد العقيلي وبذل لها عشراً من الإبل وراعيها، فقال أهلها: نحن مخيّروها بينكما، فمَن اختارت تزوّجته ودخلوا إليها فقالوا: والله لئن لم تختاري ورداً لنمثلن بك.. فاختارت ورداً فتزوّجته على كُرهٍ منها». ومنذ ذلك الوقت خسر قيس ليلاه بسبب تغزّله بها في أشعاره بين قومه.

ويسرد الأصفهاني: «فقد مضت أمّه إلى ليلى فقالت لها: إن قيساً قد ذهب حبّك بعقله وترك الطعام والشراب فلو جئته وقتاً لرجوت أن يثوب إليه عقله»، فأتته ليلاً فقالت له: «يا قيس إن أمّك تزعم أنك جننت من أجلي وتركت المطعم والمشرب فاتّق الله وابق على نفسك»، فبكى وأنشأ يقول شعراً قال: فبكت معه، وتحدّث حتى كاد الصباح أن يسفر ثم ودّعته وانصرفت وكان آخر عهده بها».

ومن شدّة تعلّقه بليلى حجّ به أبوه «ثم قال له أبوه: تعلّق بأستار الكعبة واسأل الله أن يعافيك من حب ليلى، فتعلّق بأستار الكعبة وقال: اللّهم زدني بليلى حبّاً وبها كلفاً ولا تنسني من ذِكرها أبداً. قالوا: فكان يهيم في البرية مع الوحش، ولا يأكل إلا ما ينبت في البرية من بقلٍ ولا يشرب إلا مع الظباء، إذا وردت مناهلها».

وجنّ قيس حتى لقيَ حتفه في البراري، حيث وجده أهله ميتاً في وادٍ كثير الحجارة خشن فاحتمله أهله وغسلوه وكفّنوه.

ويورد شوقي ضيف في كتابه الحب العذري عند العرب قصة ليلى والمجنون كاملة، ويقول:

«وسئل قيس قبل اختلاط عقله عن أعجب شيء أصابه في وجده بليلي، فقال: طَرَقنا ذات ليلة أضياف ولم يكن عندنا هم أدمٌ (غموس) فبعثني أبي إلى منزل أبي ليلى، وقال: أطلب لنا منه أُدْما، فأتيته، فوقفت على خِبائه، فصحت به، فقال: ما تشاء؟ فقلت: طرقنا أضياف ولا أُدْم عندنا لهم، فأرسلني أبي نطلب منك

أُدْما، فقال: يا ليلى أخرجي إليه ذلك النَّحْي (زق السمن) فاملئي له إناءه من السمن، فأخرجته ومعي قدح، فجعلت تصب السمن فيه ونتحدث، فألهانا الحديث وهي تصبُّ السمن، وقد امتلأ القدح ولا نعلم جميعا وهو يسيل حتى استنقعت أرجلنا في السمن»[21]. وأتيتهم ليلة ثانية أطلب ناراً وأنا متلفِّع ببُرْدٍ (ثوب) لي، فأخرجت لي ناراً في خرقة، فأعطتنيها، ووقفنا نتحدث، فلما احترقت الخرقة قطعت من بردي خرقة وجعلت النار فيها، وكلما احترقت خرقة قطعت أخرى ووضعت بها النار، حتى لم يبق عليَّ من البرد إلا ما وارى ستر عورتي وما أعقل ما أصنع.

ثم يذكر عن احتجاب ليلى ما يلي: «كان قيس أول ما علق ليلى كثير الزيارة لها والعرب ترى ذلك غير منكر أن يتحدث الفتيان إلى الفتيات، فلما علم أهلها بعشقه لها منعوه من إتيانها وتقدموا إليه ألا يعود إلى التحدث إليها، فطار عقله، وكان أهله يعزونه عنها ويقولون له: نزوجك أنفس جارية في عشيرتك، فيأبى إلا ليلى ويهدى بها ويذكرها، فيلومونه ويعذلونه على ما يصنع بنفسه وأكثروا عليه في الملامة والعذل يوما فقال وقد غلب عليه البكاء»[22]:

فوا كبدا من حُب من لا يحبني ... ومِـن زَفَـراتٍ مـا لهـنَّ فَناءُ
أتارِكَـتـي للمـوت أنـتِ فميـتٌ ... وما للنفوس الخائفاتِ بقاءُ

وذكروا: أن نسوة من عشيرته جلسن إليه، فقلن له: ما الذي دعاك إلى أن أحللت بنفسك كل ما نرى في هوى ليلى، وإنما هي امرأة من النساء؟ وهل لك في أن تصرف هواك إلى إحدانا فنساعفك ونجزيك بهواك ويرجع إليك ما غاب من عقلك وجسمك؟ فقال لهن: لو قدرت على صرف الهوى عنها إليكن لصرفته عنها وعن كل أحد بعدها وعشت في الناس مستريحا، فقلن له: فما الذي أعجبك منها؟ قال: كل شيء رأيته وسمعته وشاهدته منها أعجبني. والله ما رأيت شيئا منها قط إلا كان في عيني حسنا، ولقد جهدت أن يقبح عندي منها شيء أو يسمج أو يعاب لأسلو عنها، فلم أجده، فقلن له: فصفها لنا، فأنشأ يقول:

بيضـاءُ خالصـةُ البيـاض كأنـهـا ... قمرٌ توسَّط جُنْحَ ليل مُبْرَدِ
مَوْسُومةٌ بالحسن ذات حواسدٍ ... إن الجـمالَ مَظِنةٌ للحسـدِ

ويذكر شوقي ضيف أن المجنون مر في توحشه بحي ليلي، ولقيها فجأة فعرفها وعرفته فصعق وخرَّ مغشيا عليه، فأقبل فتيان من عشيرة ليلى فأخذوه ومسحوا التراب عنه وأسندوه إلى صدورهم، وسألوا ليلى أن تقف له وقفة، فرقت لما رأته به، وقالت له: أعذر عليّ بما أنت فيه، ولو وجدت سبيلا إلى شفاء دائك لوقيتك بنفسي

21 شوقي ضيف: الحب العذري عند العرب، الدار المصرية اللبنانية، 1999م، ص30

22 المرجع السابق، ص31

منه، فأفاق وجلس، وقال: هيهات إن دائي ودوائي أنت وإن حياتي ووفاتي لفي يديك، ولقد وكَّلت بي شقاء لازما وبلاء طويلا، ثم بكى وأنشأ يقول[23]:

أقول لأصحابي هي الشمس ضوؤُها ... قريبٌ ولكن في ثَناوُلها بُعْدُ
لقد عارضتْنا الريحُ منها بنفحةٍ ... على كَبدِي من طيبِ أرواحها بَرْدُ
ومازلتُ مَغْشيًّا عليَّ وقد مَضت ... أناةٌ وما عندي جوابٌ ولا رَدُّ
عِدِيني -بنفسي أنتِ- وعداً فربما ... جَلا كُربةَ المكروبِ عن قلبه الوعدُ

ولما سلب المجنون عقله وطال عليه جنونه قال الحي لأبيه: احجج به إلى مكة وادع الله عز وجل له، ومره يتعلق بأستار الكعبة، فيسأل الله أن يعافيه مما به ويبغضها إليه، فلعل الله أن يخلصه من هذا البلاء. وبينما الملوح سائر مع ابنه في بعض الأودية إذا حمام يتجاوب، فبكى الجنون وأنشد[24]:

ألا يا حَمامَ الأَيْكِ ما لك باكيا ... أفارقتَ الفاً أم جفاكَ حبيبُ
دعاكَ الهوى والشوقُ لما ترنمتْ ... هَتُوفُ الضُّحَى بين الغصون طَرُوبُ
تُجاوِبُ وَرْقاً قد سمعْنَ لصوتها ... فكلٌّ لكلٍّ مُسْعِدٌ ومُجيبُ

وكان أبوه يرق له، فيقبل عليه في أثناء سيرهما يخاطبه ويسليه ويعظه، وهو ينظر إليه كأنه لا يفهم ما يقول فقد غمره ما هو فيه من الهوى والعشق. فلما طال خطابه إياه قال له: يا بنى أما لكلامي جواب، فقال له: والله يا أبي ما علمت أنك كلمتني فاعذرني فإني كما ترى مذهوب بي، ثم أنشأ يقول:

وشغلتُ عن فهم الحديث سوى ... ما كان منكِ فإنه شُغْلي
وأديم لَحْظَ محدثي ليري ... أن قد فهمت وعندكم عقلي

ولما صار مع أبيه بمكة كان يصنع صنيعا يرحمه منه عدوه؛ إذ يقول أخرجوني إلى الجبال لعلى أتنسم صبا نجد، فيخرجونه، فيتوجه نحو نجد، ويتنفس تنفسا يظن معه أن كبده قد انصدعت. وكان لا يلقى نجديا حتى يسائله عن وديان نجد واد واد وموضع موضع فيخبره، وهو يبكي أحر بكاء وأوجعه للقلب، قائلا:

ألا حبذا نجدٌ وطيبُ ترابها ... وأرواحها إن كان نجدٌ على العهد

23 شوقي ضيف: الحب العذري عند العرب، مرجع سابق، ص38

24 المرجع السابق، ص40

ولما انتهى إلى منى سمع صائحا في الليل يصيح يا ليلى، فصرخ صرخة ظنوا معها أن نفسه قد تلفت وسقط مغشيا عليه، فلم يزل كذلك حتى أصبح، ثم أفاق حائل اللون ذاهلا، فأنشأ يقول[25]:

عرضت على قلبي العزاء فقال لي ... من الآن فايْأس لا أغرُّك بالصبر
إذا بان مَنْ تهوى وأصبحَ نائيا ... فلا شي أجدى من حلولك في القبر
وداعٍ دعا إذ نحن بالخَيْف من مِني ... فهيَّج أشجان الفؤاد وما يدري
دعَا باسم ليلى غيرها فكأنما ... أطار بليلى طائرا كان في صدري
دعا باسم ليلى ضلَّل الله سعْيَه ... وليلى بارضٍ عنه نازحةٍ قَفْرِ

ولما هبط من منى قال له أبوه: تعلق بأستار الكعبة وسل الله عز وجل أن يعافيك من حب ليلى، فتعلّق بأستار الكعبة وقال: اللهم زدني بليلي حبا وبها كلفا ولا تنسني ذكرها أبدا، وقال في بعض دعائه:

دعا المحرمون الله يستغفرونه ... بمكة وهنا أن تمحَّى ذنوبها
ونـاديت أن يا ربِّ أول سُؤلتي ... لنفسيَ ليلى ثم أنتَ حسيبُها
فإن أُعْطَ ليلي في حياتيَ لا يتب ... إلى الله خلق توبةً لا أتُوبُها
وكم قائل قد قال تُبْ فعصيته ... وتلك لعمرى توبةٌ لا أتوبها
فيا نفسُ صبرا لست والله فاعلمي ... بأوَّل نفسٍ غاب عنها حبيبُها

وهام من حينئذ واختلط عقله، فكان ينطلق في الصحراء مع الوحش لا يأكل إلا ما ينبت في الصحراء من بقل ولا يشرب إلا مع الظباء إذا وردت مناهلها وطال شعر جسده ورأسه وألفته الوحوش فكانت لا تنفر منه.

*****

إن قيساً في حبه ليلى العامرية قد «ابتعد» في أشواقه حتى تساوى الحب بالمرض وعادل الحنين الجنون، واختلط المجنون بالحيوان ثم كان الموت «... ثم سنحت له ظبية فوثب يعدو خلفها حتى غاب عني وانصرفت، وعدت من غد فطلبته فلم أجده، وجاءت امرأة كانت تصنع له طعامه إلى الطعام فوجدته بحاله، فلما كان في اليوم الثالث غدوت وجاء أهله معي فطلبناه يومنا فلم نجده، وغدونا في اليوم الرابع نستقري أثره حتى وجدناه في واد كثير الحجارة خشن، وهو ميت بين تلك الحجارة، فاحتمله أهله فغسلوه وكفنوه ودفنوه»[26].

25 شوقي ضيف: الحب العذري عند العرب، مرجع سابق، ص43

26 يوسف فرحات: ديوان مجنون ليلى، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 2003، ص 288

ولقد كانت ليلى جبارة في الاستحواذ على المجنون الذي تحرر من ذاته كل التحرر عبر قبوله بهيمنة الآخر واستسلامه لفكرة العطاء العميق حدّ الجنون والحب المجنون حدّ الموت. لقد حافظ المجنون على «حيوانية» الذات رافضا أن يصقلها باعتدال الدين أو بتطرف الأنانية الإنسانية[27].

رسالة المجنون الوحيدة الممكنة هي الحديث عن ليلى، فما قبلها ظلام وما بعدها ظلام إن لم يتحقق امتلاكه لها، الحياة هي الكلمة والكلمة هي ليلى وليلى فقط. هكذا يغدو الشعر «تأسيسا لسكن الكينونة في العالم، فتضحى اللغة الموطن الأنطولوجي الذي يحمي الكائن ويضمن استقرار مشروعه التأسيسي، وتعتبر بذلك الدليل الملامس لصيرورة الوجود»[28]. المجنون أيضا اختار السكنى في ليلى، إن لم يلبسها كجسد فهو يلبسها كلغة وإن لم يسكنها خيمته كزوجة له فهو يصنع لها من اللغة خيمة استعارية، رافضا المدلول الجماعي لكنية الجنون التي تلصقها به القبيلة، والتي يراد بها الانتقاص من إنسانيته، معتدا بجنونه الخاص الذي يدخل تجربته في حيز الأسطوري الخارق والمدهش في الوقت نفسه، يقول في موضع آخر:

يميل بي الهوى في أرض ليلى — فأشكوها غرامي والتهابي
وأمطر في التراب سحاب جفني — وقلبي في هموم واكتئاب
وأشكو للديار عظيم وجدي — ودمعي في انهمال وانسياب
أكلم صورة في الترب منها — كأن الترب مستمع خطابي
كأني عندها أشكو إليها — مصابي والحديث إلى التراب

.....

على أني بها المجنون حقا — وقلبي منها في عذاب[29]

يلغي الشاعر الحاجز بين ليلى ومكانها، يسائل أشياءها كما لو كانت هي نفسها، ذلك أن صورة ليلى الحاضرة في النفس حية متوهجة هي التي تلغي الفراغ الماثل في المكان غير أن ذلك الإلغاء لحظي فقط والشاعر يعي ذلك لذا يعترف أن حبه لليلى أدخله ضربا من الجنون لكنه الجنون الواعي بذاته. مثل ذلك الوعي هو الذي يحول النصيحة بالسلوى إلى مسخرة بالنسبة إلى الشاعر، وتتعدد أوجه السخرية في أثر المجنون، فهو يتوجه بها حينا إلى الآخر (الأهل والمجتمع)، وحينا إلى نفسه التي «تجرّأت» على أن توسوس له بهجران ليلى. يقول في الرد عن «الآخر»:

وقالوا لو تشاء سلوت عنها — فقلت لهم فإني لا أشاء
وكيف وحبها علق بقلبي — كما علقت بأرشية دلاء

27 فتيحة كحلوش: الموت حبا؛ قراءة تفكيكية في خطاب الحب في الأدب العربي القديم (مجنون ليلى أنموذجا)، جامعة فرحات عباس- الجزائر، ص4

28 عبد العزيز بومسهولي: الشعر الوجود والزمان، 43-44

29 يوسف فرحات: ديوان المجنون، مرجع سابق، ص37

لها حـب تنـشـأ في فـؤادي فليس له -وإن زجر- انتهاء[30]

****

وكم قائل لي أسل عنها بغيــرها وذلـك مـن قول الوشاة عجيب
فقلت وعيني تستهل دمـوعــها وقلبــي بأكناف الحبيب يذوب
لو كان لي قلـب يذوب بذكـرها وقـلـب بأخــربإنـها لقـلـوب[31]
يقولون لو عزيت قلبك لارعوى فقلت وهل للعاشقين قلوب[32]

تسهم السخرية التي يمارسها الشاعر في رده على الناصح البائس، في أسطرة شخصية ليلى، فالشاعر يتمنى ساخرا لو كان له قلبان ليعلق بحب امرأة أخرى، لكنه يمتلك واحدا فقط شبيها بغرفة حكم القضاء بانغلاقها الأبدي على ليلى، ومن يستطيع رد القضاء.

والحقيقة أن سخرية المجنون من وجهات نظر الآخرين نابعة من متخيّله الخاص الذي «تمركز» عنده، وجعله ذلك التمركز يلغي الآخر وقدرته على الإحساس والتدبر، «لقد استمد مفهوم التمركز، مكوناته من الدلالة المباشرة لـ Egocentricity التي تفرض غلبة وجهة نظر الذات وصوابها، وهي متصلة بعالم الطفولة؛ إذ تتجلى الأنانية المفرطة التي توافق مرحلة من نمو الطفل، تجعله يركز العالم في أناه؛ لأن وجدانه لا ينفتح على الآخرين إلا بقدر ما يكون هؤلاء مجموعة من العناصر في أفقه الذاتي، فيصعب عليه أن يفهم الأشياء من غير منظاره الخاص، ولا يعطي أي اعتبار للآخرين واهتماماتهم، الأمر الذي يؤدي إلى أن يختلط لديه الموضوع بالذات»[33] (27) كما يقول محمد عزيز الحبابي، وهو قول لا ينطبق على قضايا الحضارة والتمركز فقط، بل يخص كل شكل من أشكال القناعة المطلقة بتفوق الذات وتأخر الآخر بغض النظر عن هوية هذا الآخر، وهذا الاعتقاد المطلق «بوثوقية» النفس يبرر تكرار نصح الآخر على مستوى نص المجنون بالتخلي عن ليلى، بينما يكاد ينعدم ذلك الأمر كفعل صادر عن النفس أو ذات الشاعر وحتى عندما نجد صدى الفكرة نجده كهاجس فقط ترده النفس في وجه العقل الذي يحاول عبثا التشبه بالآخر، الخارجي، البعيد، المرفوض:

وحدّثت نفسي بالفراق أروضـهـا فقالـت رويـدا لا أغـرّك من صـبـري
فقلت لها: فالهجر والبين واحــد فقـالـت: أ أمنى بالفـراق وبالهجر[34]

30 نفسه، ص14

31 نفسه، ص ص24 -25

32 نفسه، ص26

33 عبد الله إبراهيم: المطابقة والاختلاف بحث في نقد المركزيات الثقافية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1 2004، ص 22

34 يوسف فرحات: ديوان المجنون، مرجع سابق، ص111

لا لن يفيد عقل «المجنون» في إقناع قلبه «العاقل»، نار البعاد أرحم من سعير الفراق الأبدي، وهذه المحادثة/ المراودة لن يهضمها القلب العربي البدوي.

*****

لقد رأينا تجربة من تجارب الحب العذري، وهي أيضاً من تجارب الحب السامي عند أسلافنا الذي يتحول في بعض جوانبه إلى ضرب من التصوف المجرد من قيود المادة والحس، وهو حب حقيقي عاشه أسلافنا في عصورهم الأولى، حب ليس فيه إثم ولا جناح ولا فسوق ولا حرج ولا خيانة ولا عار ولا خطيئة ولا ريبة، إنما فيه الوفاء والصفاء والعفاف والطهر والنقاء. وفيه كان يحتفظ المحبون بكرامتهم مهما ألح عليهم الحب ومها اصطلوا من نيرانه واحتملوا من خطوبه، حتى إنهم يموتون شهداء في سبيله، وفيه تحتفظ الفتاة بجلالها ووقارها مع رقة العواطف ورهافة المشاعر ومع البر والحنان والإشفاق، ومع العشق والصبابة والهيام.

وقد صاغ أسلافنا هذا القصص العذري النقي العفيف في لغة ناصعة أروع ما يكون النصوع، ليس فيها إسفاف، بل فيها القوة والجزالة والمتانة والرصانة وهذا الجمال اللفظي الذي يحدث لذة محققة في نفس القارئ. وأحاديثه لا تجري نثراً خالصاً ولا شعراً خالصاً، بل تجمع بين الفنين فتمتع الأسماع حين تصغي إليها كما تمتع القلوب والأفئدة[35].

وننعطف الآن على مظاهر الحب الإلهي، حيث يرى البعض أن الحب المتعارف عليه بين الرجل والمرأة وإن كان حباً عذرياً، يصلح ليكون درجة أولى أو مران على الترقي في درجات الحب الإلهي، والسؤال هنا: هل تصلح المرأة لتكون أولى درجات السلم للترقي إلى مراقي (مراتب) الحب الإلهي وحب النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم؟

الحقيقة أن الإجابة عن هذا السؤال ستكون بالنفي، فحب المرأة وإن كان حبّاً عذرياً لا يصلح أن يكون درجة من درجات الحب الإلهي السامي، رغم أن معظم الشعراء الصوفية استندوا على منبع الحب العذري ليكون ترقياً لمواجيدهم، والسبب في رفضي أن يكون الحب العذري درجة من درجات الترقي في طريق الحب الإلهي أن الحب بشكل عام وإن كان حباً عذرياً للمرأة فيه منغصات وانحرافات أحياناً. وحب الله مبعث على البهجة والسرور والسعادة الدائمة في الدارين، ليس فيه منغصات أو انحرافات، فحب الله سبحانه وتعالى مبرأ عن ذلك.

ومراتب الحب عند السادة الصوفية عشر مراتب:

- **أولها العلاقة:** وسميت بذلك لتعلق القلب بالمحبوب.

35 شوقي ضيف: الحب العذري عند العرب، مرجع سابق، ص8

- **الثانية الإرادة:** وهي ميل القلب إلى محبوبه وطلبهُ له.
- **الثالثة الصبابة:** وهي انصباب القلب إلى المحبوب بحيث لا يملكه صاحبه، كانصباب الماءِ في المنحدر.
- **الرابعة الغرام:** وهو الحب اللازم للقلب لا يفارقه، بل يلازمه كملازمة الغريم لغريمه.
- **الخامسة الوداد:** وهو صَفوُ المحبة، وخالصها، ولبها.
- **السادسة الشغف:** وهو وصول الحب إلى شغاف القلب. قال الإمام الجنيد رحمه الله تعالى: الشغف ألا يرى المحب جفاءً، بل يراه عدلاً منه ووفاءً.

وتعذيبُكم عذبٌ لديَّ وجَوْرُكم عليَّ بما يقضي الهوى لكمُ عدلُ

- **السابعة العشق:** وهو الحب المفرط الذي يُخاف على صاحبه منه.
- **الثامنة التتيُّم:** وهو التعبد والتذلل، يقال: تيَّمه الحب أي ذَلَّلَهُ وعبَّده.
- **التاسعة التعبد:** وهو فرق التتيم، فإن العبد لم يبق له شيء من نفسه.
- **العاشرة الخلة:** انفرد بها الخليلان إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وهي المحبة التي تخللت روح المحب وقلبه، حتى لم يبقَ موضع لغير المحبوب [36].

ورغم أن مفردات السادة الصوفية (كالصبابة والغرام والعشق وغيرها) تتشابه مع مفردات الحب المتعارف عليها (عند حب الرجل للمرأة) إلا أن المقصود يختلف تمام الاختلاف. فإذا كان الله سبحانه وتعالى هو المقصود، فلابد من اختلاف الدلالة للمفردات أيضاً.

وقد رأى الصوفية أن سر هذه الحياة يقوم على حرفين اثنين: الحاء والباء. وأحسنُ حالة الإنسان صدقٌ وأكملُ وصفِه حاءٌ وباءُ. فالتكاليف تَسْهلُ وتَلَذُّ إذا ما وُجِدَ الحب:

لولاك يا سرَّ الوجود ما طاب عيشي ولا وجودي
ولا ترَنَّمْتُ في صلاتي ولا ركـــوعي ولا سجودي

وإذا تمكن الحب من القلب أخرج هذه الدنيا الفانية من سويدائه، وعاش صاحبه حياة طيبة منعمة، لا يعرف الهمُّ سبيلَه إليه.

36 انظر كتاب مدارج السالكين، ص18

مر بعض الصوفية على رجل يبكي على قبر، فسأله عن سبب بكائه، فقال: إنّ لي حبيباً قد مات. فقال: لقد ظلمتَ نفسك بحبك لحبيب يموت، فلو أحببتَ حبيباً لا يموت لما تعذبت بفراقه.

وفي واقعنا أمثلة كثيرة عمن يسترخص موته عند يأسه من لقاء من يحبه، أو انقطاع أمله مما تعلق قلبه به من متاع زائل. فالانتحار، وحرق النفس والترامي على صخرة الموت.. أمور كلنا نسمعها عن محبين بائسين خاسرين، وقد قيل:

فإن شئتَ أن تحيا حياةً هنيئةً فلا تتخذْ شيئاً تخافُ له فَقْدا

فأين هؤلاء من أحباب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم الذين أحبوا الله، ورضوا به رباً، وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم رسولاً، وبالإسلام ديناً!

رابعا- الطريق إلى الحب الإلهي:

أصبحت مسألة الحب الإلهي في الحقيقة موضوعًا رئيسا للشعر عند الصوفية في أواخر القرن الثاني الهجري على يد رابعة العدوية (ت185هـ) التي أحبت الله لذاته، لا خوفًا من ناره، ولا طمعًا في جنته، فهي: «أول من أدخلت هذا المعنى في التصوف الإسلامي بالمعنى الحقيقي الكامل للحب، لا مجرد التعبير بالألفاظ عنه تعبيرًا ظاهريًّا»[37]، فقد تغنى الصوفية بعدها به، واعتبروه مقامًا من مقامات السلوك، أو حالاً من أحواله[38].

على أن بعض المتأخرين من متفلسفة الصوفية قد غلبت عليهم عاطفة العشق الإلهي، وعبَّروا عنها في أشعارهم تعبيرًا فلسفي الطابع، وأدَّى بهم العشق إلى شهود الوحدة في الوجود شهودًا ذوقيًّا[39].

ومن الباحثين من يرى أن العشق عند الصوفية يبدأ بالحب العذري، ثم يكون الحب الإلهي الشريف، وينقل عن الكاتب والشاعر الفارسي عبد الرحمن الجامي مؤلف كتاب [ليلى والمجنون] أو [الحب الصوفي] الذي ترجمه الدكتور محمد غنيمي هلال أن الحب العذري ضرب من التصوف[40].

وهذا يدفع إلى التساؤل: هل الحب العذري طريق إلى التصوف؟ وهل ما يقاسيه المحب في هذا الحب من أشواق ومواجيد وخلاف ذلك يفيد روحانيته؟ وهل يؤمن الناس بقدسية هذا الحب، أم إنه ضرب من الخيال؟!

---

37 مصطفى فهمي: أهل المحبة والعشق من الصوفية (ابن الفارض نموذجاً)، ص52

38 عبد الرحمن بدوي: شهيدة العشق الإلهي رابعة العدوية، مكتبة النهضة المصرية، سلسلة دراسات إسلامية، بدون تاريخ، ص 61

39 التفتازاني: مدخل إلى التصوف الإسلامي، ص 260

40 محمد إسماعيل إبراهيم: المعارج القدسية، دار الفكر العربي، القاهرة، بدون تاريخ، ص 6- 9، 42 وما بعدها.

من النقاط التي أثيرت واختلف حولها الرأي في المحبة والعشق الصوفي تلك التي تتصل باشتراط سبقها بالمحبة الإنسانية؛ أي التي تنشأ بين أفراد الناس.

نجد أن بعض الباحثين يقرُّ أن الكثرة الغالبة من الصوفية لا تعول على مثل هذا الشرط[41] ويؤيده هذا الرأي القول إن الحب الصوفي لله تعالى ليس انعكاسًا لميول جنسية مكبوتة، وليس هو أيضًا حبًا قد تعثر من قبل، فكثير من الصوفية لم يسبق لهم الوقوع في حب بشري قبل تصوفهم[42].

في حين نجد أن ابن الفارض وابن عربي قد اتخذا من الحب العذري والعشق الإنساني طريقًا إلى الحب الإلهي والعشق الرباني، وهو ما أيدَّه د/محمد مصطفى حلمي في حال الحب عند ابن الفارض، فلم يستبعد أن يكون سلطان العاشقين قد أحبَّ حبًّا إنسانيًّا في أول عهده، ثم أقبل بعد ذلك على الله، وجرَّد عزمه في حبه له، وإعراضه عمن سواه، فكان لكل من الحبين صداه في شعره[43].

◄ **الحب في الاصطلاح الصوفي:** «ميل دائم بقلب هائم، ويظهر هذا الميلُ أولاً على الجوارح الظاهرة بالخدمة وهو مقام الأبرار، وثانياً على القلوب الشائقة بالتصفية والتحلية، وهو مقام المريدين السالكين، وثالثاً على الأرواح والأسرار الصافية بالتمكين من شهود المحبوب، وهو مقام العارفين[44] فبداية المحبة ظهور أثرها بالخدمة ووسطها ظهور أثرها بالسكر والهيام. ونهايتها ظهوره بالسكون والصحو في مقام العرفان[45].

◄ **أحوال أهل المحبة:** يقسّم الصوفية أهل المحبة إلى ثلاثة أقسام: محبة العامة، ومحبة الخاصة، ومحبة خاصة الخاصة[46].

أما محبة العامة وشرطها صفاء الودّ مع دوام الذكر؛ لأن من أحب شيئاً أكثر من ذكره». وهذه الحال ينطبق عليها قول سهل بن عبد الله التستري (ت: 283هـ): «موافقة القلوب الله، والتزام الموافقة لله، واتِّباع الرسولr مع دوام الاستهتار (الولع والشغف) بذكر الله تعالى ووجود حلاوة المناجاة الله، وكذلك ما قاله بعض المشايخ عن المحبة: «استهتار القلوب شغفها) بالثناء على المحبوب وإيثار طاعته والموافقة له كما قال القائل:

لوكان حبّك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيعُ

41 كمال جعفر: التصوف طريقًا وتجربة ومذهبًا، ص 74

42 عبد اللطيف العبد: الإنسان في فكر إخوان الصفاء، ص 239

43 محمد مصطفى حلمي: ابن الفارض والحب الإلهي، ص 150

44 عبد الله أحمد عجيبة: معراج التشوف إلى حقائق التصوف، تقديم وتحقيق عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، ص32

45 ابن عجيبة: معراج التشوف إلى حقائق التصوف، ص 32

46 رضوان محمد سعيد عجاج إيزولي: تجليات الحب الإلهي وفلسفته في الشعر الصوفي «أبو مدين التلمساني أنموذجاً»، دراسة تتناول العلاقة بين الحب الصوفي والحب العذري، مجلة التواصل الأدبي، جامعة البلقاء التطبيقية، المملكة الأردنية الهاشمية، 2013م، ص87

ويتولد هذا الحال من إحسان الله إلى العامة وعطفه عليهم.

وأما محبة الخاصة: فتتولد من نظر القلب إلى غناء الله وجلاله وعظمته وعلمه وقدرته، وهو حب الصادقين والمتحققين وشرطها هتك الأستار وكشف الأسرار ومحو الإرادات، واحتراق جميع الصفات والحاجات[47].

وأخيرا محبة خاصة الخاصة من الصديقين والعارفين، تولدت من نظرهم ومعرفتهم بتقديم حب الله بلا علة، فكذلك أحبوه بلا علة وهي حب الله الصافي الذي لا كدرة فيه، وسقوط المحبة عن القلب والجوارح حتى القلب والجوارح، حتى لا يكون فيها المحبة، وتكون الأشياء بالله ولله، فذلك المحب الله. وقال أبو يعقوب السوسي: لا تصح المحبة حتى يخرج من رؤية المحبة إلى رؤية المحبوب؛ بفناء علم المحبة من حيث كان له المحبوب في الغيب ولم يكن هو بالمحبة، فإذا خرج المحب إلى هذه النسبة كان محباً من غير محبة[48].

◀ **الحب عند ابن عربي**: يرى ابن عربي أنَّ المحبة «مقام إلهي وصف الحق تعالى به نفسه وتسمى بالودود» والحب عند الشيخ الأكبر سبب وجود العالم لقوله: «كنت كنزاً لم أعرف فأحببتُ أن أعرف فخلقت الخلق وتعرفت إليهم فعرفوني»[49]. «وإلا فالحب لا يتعلق إلا بمعدوم يصح وجوده وهو غير موجود في الحال والعالم محدث والله كان ولا شيء معه، فكان الحب أصل سبب وجود العالم والسماع سبب كونه... فالمحبة مقامها شريف، وهي أصل الوجود كما يراها ابن عربي في قوله[50]:

عن الحب صدرنا وعلى الحبِ جُبلنا
فلذا جئناهُ قصدا ولـهـذا قـــد قُبلنا

والمحبة «آية الاختصاص، ونتيجة الاصطفاء، والإخلاص» من قوله تعالى: {**يحبهم ويحبّونه**} (المائدة: 53). فيخلّصه الله تعالى من زيغ البصر والتلفت في النظر[51] والمحبة الصوفية توصل المحب إلى درجة الفناء في المحبوب. «فما إن تتعلق الإرادة بمحبوب حتى تظهر على المحب أحكام الحب؛ إذ إن للحبّ سلطاناً به يحكم ويتحكم»[52].

يقول ابن عربي: «إن كل حبٍّ يحكم على صاحبه بحيث إن يصمّه عن كل مسموع، سوى كلام محبوبه ويختم على قلبه؛ فلا يدخل فيه سوى حبّ محبوبه ويرمي قفله على خزانة خياله، فلا يتخيّل سوى صورة،

47 المرجع السابق، ص88

48 أبو نصر السراج الطوسي: اللمع، تحقيق: الدكتور عبد الحليم محمود، وعبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة، مصر، 1960م، ص86-88

49 إسماعيل بن محمد العجلوني: كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على السنة، أشرف على تصحيحه والتعليق عليه: أحمد القلاش، الطبعة السابعة، الجزء الثاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1997م، ص 173

50 محي الدين محمد ابن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني، د. ط، دار الكتب العربية الكبرى، مصر، د.ت، ص323

51 عبد الرزاق الكاشاني: معجم اصطلاحات الصوفية، الطبعة الأولى، تحقيق: عبد العال شاهين، دار المنار، القاهرة، 1992، ص 307

52 سعاد الحكيم: الحب الإلهي والحب الإنساني عند ابن عربي، أطروحة دكتوراه قدمت في معهد العالم العربي - باريس - 1993

محبوبه فبه يسمع وله يسمع وبه يبصر وله يبصر وبه يتكلم وله يتكلم، وكل حب يبقى في المحب عقلاً يعقل به عن غير محبوبه أو تعقلاً فليس بحب خالص»[53].

هذا هو الحب وهذا حكم الحب، الاستهلاك بالكلية فهو: «حب الذات للذات في الحضرة الأحدية بفناء الحدوث في عين الأزلية[54].

◄ **أنواع الحب الصوفي:** فرّق الصوفية بين حب الإنسان الله وحب الله للإنسان «أما محبة العبد الله، فحالة تلطف عن العبارة، تحمل الإنسان على التعظيم له وإيثار رضاه وقلة الصبر عنه، والاهتياج إليه، وعدم القرار من دونه. ولا تتضمن محبة الإنسان لله ميلاً ولا اختطاطاً لتقديس حقيقة الصمديّة عن اللحوق والدرك، والإحاطة، فهي لا توصف بوصف، ولا تحد بحد أوضح ولا أقرب إلى الفهم من المحبة [55]. وأما محبة الله للإنسان إرادة الله أن يخص الإنسان بالقربة والأحوال العليّة، وهي إرادة واحدة تختلف أسماؤها بحسب متعلقاتها، فإذا تعلقت بالعقوبة سميت غضباً، وإذا تعلقت النعمة سميت رحمة، وإذا تعلقت بخصوصها سميت محبة»[56].

ويقول الشعراني نقلاً عن ابن عربي: «لا يصح أن يكون الخلق في رتبة الحق تعالى أبداً، كما لا يصح أن يكون المعلول في رتبة العلة»[57].

◄ **الحب الإلهي:** هو حب العارفين الكمَّل ليس للفناء فيه سبيل، بل هو حـ في غاية الصحو، وهو أكمل أشكال الحب حب حكم في علم، والعارف علمه يسع حبه ويحتويه، فلا تظهر على العارف لوازم المحبة ونعوتها فينسب إلى المعرفة لا إلى المحبة؛ في حال كونه محباً (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرُّ مرَّ السحاب) (النمل: 88). والمحب لا يكون عارفاً، كما لا يكون العارف محباً، لأن المحب يظهر سلطان حبّه فيه، ويحكم على علمه، وتحكم فيه المحبة بآثارها ولوازمها، فيقال فيه محب وينسب إلى المحبّة، لا إلى العرفان، ولو كان عارفاً، لأن الحال عليه أغلب [58]، يقول ابن الفارض وهو من المحبين العارفين:[59].

قل للذين تقدموا قبلي ومن ... بعدي ومن أضحى لأشجاني يرى
عني خذوا وبي اقتدوا ولي ... اسمعوا وتحدثوا بصَبابَتي بين الورى

---

53 ابن عربي، الفتوحات المكية، ج 2، ص ص 325 - 326

54 عبد الرزاق الكاشاني: معجم اصطلاحات الصوفية، مرجع سابق، ص308

55 حاشية العروسي على الرسالة القشيرية، ج 4، ص 86/ عاطف جودة نصر: شعر عمر الفارض، ط 1، دار الأندلس، بيروت، 1982، ص 252

56 عاطف جوده نصر: شعر عمر ابن الفارض، مرجع سابق، ص 252

57 عبد الوهاب الشعراني: اليواقيت والجواهر، ص: 58

58 محمود محمود غراب: الحب والمحبة الإلهية من كلام الشيخ الأكبر، ص: 176

59 عمر ابن الفارض: ديوان ابن الفارض، ص: 143، 164

ويقول أيضاً[60]:

كـل مـن في حمـاك يهـــواك لكن أنا وحدي بكل من في حماكا
يُحشر العاشقون تحت لوائي وجـمـيـع المـــلاح تحـــت لـواكـا

والحب على قدر التجلي، والتجلي على قدر المعرفة وكل من ذاب فيها (المحبة) وظهرت عليه أحكامها لستر، تعطيه لا يعرفه إلا العارفون فالمحبُّ العارف حي لا يموت، روح مجرد لا خير للطبيعة بما يحمله من المحبة حبه، إلهي وشوقه رباني، مؤيد باسمه القدوس على تأثير الكلام المحسوس برهان ذلك هذا الذي ذاب حتى صار ماء، لو لم يكن حب ما كان، هذا حاله فقد كان محباً ولم يذب حتى سمع كلام الشيخ، فثار كامن حبّه، فكان منه ما كان.

فعاشق العشق الإلهي يترقى في مدارج عشقه كلما ازدادت معرفته، حتى إننا نستطيع أن نقول مع ابن عربي العارف الكامل هو العاشق الكامل[61] «الغيرة الإلهية قضت بألا يحبّ سوى الله في الكون.

ولا يمكن الفصل بين حب الإنسان الله، وحب الله للإنسان؛ وذلك لقوله: {**يحبهم ويحبونه**}، حيث إنّ المحبة متبادلة بين الحقِّ، والخلق وإن كانت بنسبة مختلفة، لكل منهما، إلا أن نهايته من الطرفين أن يشاهد العبد كونه مظهراً للحق ... وأن يكون الحق مظهراً للعبد»[62].

◄ **بين الحب الصوفي والحب العذري:** كما أشرت في مقدمة البحث إلى أنّ هناك صلة وطيدة بين الغزل العذري والحب الصوفي، فقد عبر شعراء الصوفية عن حبهم ومواجيدهم بلغة العذريين والزهاد لما بينهما من علاقة في التسامي بالشعور، ففي الحب العذري يتعلق المحب بمحبوبه تعلقاً مثالياً، فلا تراوده في حبه وساوس النفس، وهواجس السوء، ويتملكه شعور حاد بالتحريم الجنسي، وهو شعور أخلاقي يُعلي به غرائزه محاولاً إيجاد نوع من التوافق والتجانس بين ما يرغب فيه، وما يخشاه في الوقت نفسه[63].

وقد وجد الصوفيون ضالتهم في التعبير عن مواجيدهم في ألفاظ الغزل العذري؛ لما علاقة في المعاناة، والحرمان والشوق والحنين والتذلل للمحبوب، إلا أن الصوفية نقلوا ذلك الرمز الصوفي ورفعوه إلى «مستوى التجلي الإلهي، ورد الجمال الأنثوي إلى الجمال العالي المطلق الذي لا تعين له في نفسه والذي تخلل التعينات

60 المرجع السابق، ص165

61 سعاد الحكيم: الحب الإلهي والحب الإنساني عند ابن عربي، مرجع سابق، ص14

62 راجع: ابن عربي: الفتوحات المكية، ج 2، ص 111، سعاد الحكيم: الحب الإلهي والحب الإنساني عند ابن عربي، مرجع سابق، ص16

63 عاطف جوده نصر: شعر عمر ابن الفارض، مرجع سابق، ص 166

الجميلة، مع بقائه على ما هو عليه من حيث الوحدة والإطلاق [64]، مثال ذلك ما قاله ابن الفارض في حبه الإلهي المطلق[65].

وصرّح بإطلاق الجمـــال ولا تقل ... بتقـييده مـيـــلاً لـزخـرفِ زينةِ
فكل مليـح حســنـــه من جمالها ... معـارٌ لهُ بـــل حســـنُ كلّ مليحةِ
بها قيس لبني هام بل كل عاشق ... كمـــجـــنـون ليلى أو كثيّرِ عـــزَّةِ
فكل صبا منهم إلى وصف لبسها ... بصـورةِ حسنٍ لاحَ في حسن صورةِ
وما ذاك إلا أن بـدَتْ بمظاهـــرٍ ... على صِبَغ التـلـويـن في كـلّ برزةِ
ففي النشـأة الأولى تـراءت لآدم ... بمظهر حواءَ قبـلَ حـكـم الأمومةِ
فهـامَ بـهـا كيما يكـون بـه أباً ... ويظـهـر بالزوجـين حكمُ البنـوَّةِ
وكان ابتـدا حـبِّ المظاهر بعضَها ... لبـعـض ولا ضـدٌّ يُصَـدُّ ببـغـضـةِ
وما برحـتْ تبـدو وتخفـى لعلّةِ ... على حسبِ الأوقـات في كلِّ حقبةِ
وتظهـر للعشـاق في كلِّ مظهـــر ... من اللبس في أشكال حسن بديعةِ
ففي مرةٍ لبنـى وأخـرى بثينـة ... وآونـــهٍ تُـدعـــى بـعـزة عزَتِ
ولسن سواها، لا ولاكُنَّ غيرهـــا ... ومـا إن لها في حسنِها من شريكةِ
ففي مـرةٍ قيسـاً وأخـرى كثّيراً ... وآونـــه أبـــدو جـمـيـلَ بثينةِ
تجليت فيهم ظاهراً واحتجبـتُ ... باطنـاً بهم فأعجب لكشفٍ بسترةِ

والملاحظ عند ابن الفارض أنه اتخذ من لبنى وليلى، وعزة وبثينة وقيس، وكثير، وجميل – وهم أشهر العذريين في الأدب العربي - نماذج للوحدة بين العاشق والمعشوق، فهم جميعهم شخص واحد، وإن اختلفت أسماؤهم إشارة إلى الحقيقة الكليّة المطلقة وبهذا يكون الشعراء الصوفيون قد «رفعوا الحب الدنيوي إلى أفق له من الرفعة جعله قريباً من الحب الإلهي»[66]، ومن خلال هذا الجوهر الأنثوي رمز الصوفية إلى الحكمة العرفانية، والحب في مظهريه الإلهي والإنساني من حيث ما يتضايفان، ويحيل كل منهما إلى الآخر»[67].

وتأثر شعراء الصوفية بالشعراء العذريين واضح وجلي فهذا قيس بن الملوح يقول:

وماذا عسى الواشونَ أن يتقوّلوا ... سوى أن يقولوا: إنني لكِ عاشقُ

64 عاطف جوده نصر: الرمز الشعري عند الصوفية، الطبعة الثالثة، دار الأندلس – لبنان، 1983، ص: 175

65 عمر ابن الفارض: ديوان ابن الفارض، ص: 56، 57

66 يوسف سامي اليوسف: ابن الفارض شاعر الحب الإلهي، ص 52

67 عاطف جوده نصر: الرمز الشعري عند الصوفية، مرجع سابق، ص 255

نعم صدقَ الواشونَ أنتِ حبيبة إليّ وإن لم تصفُ منكِ الخلائقُ

ويقول ابن الفارض:

وماذا عسى عني يُقال سوى غدا بنعم لهُ شغلٌ؟ نعم لي بما شغلُ

ويقول قيس:

أباليأس، والداء والهُيام أصابني فإياكَ عنّي، لا يكُ بكَ ما بيا

وأوجه التلاقي والتأثر كثيرة وواضحة في مثل هذه المعاني المشتركة. ولعل تحوّل شخصية قيس بن الملوح في الأدب الصوفي إلى شخصية ذات طابع جنوني يظهرها على الصلة الوثيقة بين الغزل العذري والحب الصوفي، حيث لم يكن للجنون في الأصل معنى سوى التعبير عن استغراق قيس في عاطفته، وطغيان هذه العاطفة على جوانب شخصيته[68]. وقيس عند الصوفية رمز للمحب الذي فني عن أوصافه وذاته، وأنه كان كثير الإغماء عند ذكر ليلى وهذا شبيه لحالة الاستغراق المصاحب للذكر والحضور الله، والغيبة عما سواه[69].

وقول المجنون: «أنا ليلى» شبيه بقول الحلاج «أنا الحق»، وهو في حال فنائه وشهوده لواجب الوجود[70].

وإشارة أبي نصر السراج إلى وجود مجنون ليلى دلالة على رمزية هذه الشخصية المبكرة عند الصوفية فيقول معللاً قول القائل لصاحبه: أنا أنت وأنت أنا، فمعناه: معنى الإشارة إلى ما أشار إليه الشبلي (ت 334هـ - 945م): حيث قال في مجلسه يا قوم هذا مجنون بني عامر كان إذا سئل عن ليلى، فكان يقول: أنا ليلى فكان يغيب بليلي عن ليلى حتى يبقى بمشهد ليلى ويغيبه عن كل معنى سوى ليلى، ويشهد الأشياء كلها بليلى، فكيف يدعي من يدعي محبته، وهو صحيح مميّز، يرجع إلى معلوماته ومألوفاته وحظوظه، فهيهات أتى له ذلك، ولم يزهد في ذرة منه، ولا زالت عنه صفة من أوصافه؟! [مع أن] بذل المجهود للمعبود أدنى رتبة عند القوم»[71].

على الرغم من العلاقة الوثيقة بين الغزل العذري والحب الصوفي، في الطهر والنقاء والعفة، والنبل، والحنين، والغياب في المحبوب، والتوحد، والفناء، والعناء والسهر والتذلل ... إلخ، إلا أنّ الفرق يبقى واضحاً بينهما؛ ذلك أنّ الصوفيين دفعوا بالحب والمحبوب إلى مرتبة السمو والتعالي لكن العذريين كان غزلهم يميل إلى اللوعة واللهفة المتصلة بكائن أنثوي لا يخرج عن الدنيوية بأي حال من الأحوال. والصوفيون ترفعوا وارتقوا إلى أفق الاتصال بكائن أنثوي ما عدا امرأة دنيوية محددة الهوية والشخصية فلقد بلغوا إلى ضرب من إلهي

68 عاطف جوده نصر: شعر عمر ابن الفارض، مرجع سابق، ص 188

69 رضوان محمد سعيد عجاج إيزولي: تجليات الحب الإلهي وفلسفته في الشعر الصوفي «أبو مدين التلمساني أنموذجاً»، مرجع سابق، ص104

70 عاطف جوده نصر: شعر عمر ابن الفارض، مرجع سابق، ص 188

71 أبو نصر السراج الطوسي: اللمع، مرجع سابق، ص437

المطلقة» التي تشمل المرأة وتتجاوزها في آن واحد، حتى لكأنهم منهكون بماهية الوجود، أو بهوية تجريدية تتراءى للبصيرة ولا ترى بالبصر.

بينما يعمد العاشق العذري إلى التولّه بهذه المرأة بالذات فقيس يعشق ليلى، وكثير يعشق عزة وجميل يعشق بثينة مثلاً وبينما تبقى ليلى مجرد امرأة تقبل الشخوص والتجسيد والمثول، فإن الشاعر الصوفي جعل من ليلى اسماً للكلية، أو لسر الكينونة المصون عن الأبصار، كما أنه قد وحمد جميع المعشوقات في امرأة واحدة لا وجود لها على أي نحو عيني مفرد ثم دمج هذه المعشوقة التجريدية الحيَّة في حقيقة تجريدية أخرى، فكان العشق الصوفي مجرد حنين نبيل إلى المطلق والفرق الحاكم بين العذريين والصوفيين أنّ إلهي المطلقة التي يحاورها الصوفيون يرتفعون بواسطتها إلى أفق الروحانية الخالصة[72].

72 يوسف سامي اليوسف: ابن الفارض شاعر الحب الإلهي، ص 56

خاتمة:

الإنسان العربي إنسان عاشق، مجنون حبا وتخيلا، سواء تعلق الجنون بامرأة أم بالحب الإلهي – كما في شعر التصوف الذي هو شكل من أشكال التسامي والتعويض عن حب دنيوي فان بابتداع عشق أبدي-، ولهذا فالعربي من الناحية الواقعية مستغرق في المكان الذي يربطه بموضوع عشقه: ديار الحبيبة أو محراب التعبد.

والجدير بالذكر، أن شعراء الصوفية لم يتأثروا بغرض من أغراض الشعر العربي كما تأثروا بالشعر العذري [العفيف]، وكان لهذا الغرض الشعري حضوراً قوياً في الشعر الصوفي، حيث استخدم الصوفيون مصطلحات العذريين وأساليبهم، بل ألفاظهم وصورهم عينها، وسبب ذلك عدم قدرتهم على استخدام لغة خاصة بالحب الإلهي، حيث تكون لغة يتعارفون عليها وخاصة بهم، كون الشعراء الصوفيين لم يصلوا إلى الحب الإلهي الخالص إلا بعد أن تمكنت اللغة الحسية لديهم، فيترجمون تلك اللغة التي اعتادوها إلى لغة روحية، فلا يجد الشاعر أمامه إلا لغة المحبين المتيمين بكل أشكالها وقوالبها الفنية، فيصورون مشاعرهم وأخيلتهم وقد أحالوها إلى مصطلحات رمزية صوفية عرفانية بعيدة عن عالم الحس لا يعرفها ولا يتذوقها إلا من خاض التجربة الصوفية[73].

وعليه، فالصوفي والعذري سواء في الشعور بالجمالية، فتلك الأشعار الجميلة ذات البعد الإنساني الطاهرة؛ ففي كل نجد معنى العفة والطهر والإخلاص، والفناء في المحبوب، والصدق، ودوام اللهج باسم المحبوب، الذي لا يرى وجودا سوى وجوده، ولا يعشق معشوقا غيره؛ مثل هذه المعاني المثالية السامية هي التي جعلت أخبار شعراء الصوفية، والشعراء العذريين تشيع في البلدان ويسير بها الركبان.

وسؤالنا هو هل هناك صلة بين الحب العذري والحب الصوفي؟ فالجواب كما أسلفنا لا علاقة بينهما إلا من حيث المبدأ، والغاية، ولكنَّ الشاعرين كليهما العذري والصوفي يعبران عما يتملكهما من عاطفة عارمة تجاه المحبوب يعبران عنها بألفاظ حسية تتشابه في طرائق التعبير عن الحب والهيام، فنجده في شعر المتصوفين: كرابعة العدوية وابن عربي وابن الفارض وعمر اليافي وعبد الغني النابلسي وأمين الجندي وأبي مدين الغوث التلمساني، وغيرهم من شعراء الصوفية، كما نجده لدى قيس وكُثير وجميل، وغيرهم من العذريين. وتجمعهما المعاناة الإنسانية، كالخوف المقلق من البعاد وعدم الوصال، والشوق المحرق للقاء المحبوب، ولعل المتصوف في حبه لا يتيسر له أن يعبر عن شوقه وحبه إلا إذا كان قد عانى من الحب الإنساني، واحتدمت به عاطفته الإنسانية، ثم أحال ذلك الحب إلى حب أسمى، هو حب الذات الإلهية.

وعليه، فالعلاقة بين الشاعر الصوفي والشاعر العذري علاقة مشابهة في الإخلاص والتوق للمحبوب، فكلاهما يصل إلى درجة الفناء في محبوبه، وكلاهما نهج المنهج نفسه، منهج المتعففين من العشاق ونعلم ما بين العفة

73 رضوان محمد سعيد عجاج إيزولي: تجليات الحب الإلهي وفلسفته في الشعر الصوفي «أبو مدين التلمساني أنموذجاً»، دراسة تتناول العلاقة بين الحب الصوفي والحب العذري، مجلة التواصل الأدبي، جامعة البلقاء التطبيقية، المملكة الأردنية الهاشمية، 2013م، ص85

في الحب وبين الزهد من تشابه، فكلاهما يترفع عن الغريزة الهابطة ويتسامى بشعوره، فالعذري يتعلق بمحبوبته تعلقاً مثالياً، والصوفي ترتقي نفسه تأملا، حتى إذا فاض عليها الإشراق، تحققت بأن الله هو المعشوق الأول... الظاهر في كل محبوب في عين كل محب... فما أحبَّ أحدٌ غير خالقه، ولكن احتجب عنه تعالى بحب زينب وسعاد وهند وليلى والدرهم والجاه وكل محبوب في العالم، فأفنت الشعراء كلامها في الموجودات، وهم لا يعلمون والعارفون لم يسمعوا شعرا ولا لغزا ولا مديحا ولا تغزلا إلا فيه من خلف حجاب الصور، وسبب ذلك الغيرة الإلهية أن يحب سواه فإن الحب سببه الجمال وهو له؛ لأن الجمال محبوب لذاته والله جميل يحب الجمال. وعليه فما أحب أحد غير خالقه كما يرى ابن عربي في فلسفته للحب.

وقد خلص البحث إلى النتائج التالية:

1. الشعر الصوفي شعر يعبر عن مواجيد وتجليات تتعلق بالذات الإلهية.
2. استخدام ألفاظ العذريين وشعراء الخمرة وإحالتها الى رموز عرفانية تعارفوا عليها.
3. تأثر شعراء التصوف بغيرهم من شعراء الغزل والخمرة.
4. الحب الصوفي حبّ إلهي ذو أبعاد فلسفية حيث جعلوا حبهم للذات الإلهية المطلقة، فغزلهم وحبهم تجسد في الجمال المطلق، فلم يكن للجسد فيه حظ ألبته.
5. الرمز الصوفي رمـز عرفاني له دلالاته، ومصطلحاته، وبناء عليهـا يجب ان تقوم الدراسات النقدية والفنية، ولا تدرس على ما تعارفت عليه المدرسة الرمزية الفرنسية الحديثة.

المصادر والمراجع

1. إبراهيم مصطفى مذكور وآخرون: المعجم الوسيط، مادة حب، الجزء الأول، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

2. ابن حزم الأندلسي: طوق الحمامة في الألفة والألّاف، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، رغاية، الجزائر، 1988م.

3. ابن منظور: لسان العرب – دار المعارف - القاهرة.

4. أبو نصر السراج الطوسي: اللمع، تحقيق: الدكتور عبد الحليم محمود، وعبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة، مصر، 1960م.

5. إسماعيل بن محمد العجلوني: كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على السنة، أشرف على تصحيحه والتعليق عليه: أحمد القلاش، الطبعة السابعة، الجزء الثاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1997م.

6. أمين سلامة: الحب في الميزان، مؤسسة هنداوي، 2022م.

7. جمال الدين محمد ابن منظور: لسان العرب، الطبعة الثالثة، المجلد الأول، دار صادر، بيروت، د.ت.

8. رضوان محمد سعيد عجاج إيزولي: تجليات الحب الإلهي وفلسفته في الشعر الصوفي «أبو مدين التلمساني أنموذجاً»، دراسة تتناول العلاقة بين الحب الصوفي والحب العذري، مجلة التواصل الأدبي، جامعة البلقاء التطبيقية، المملكة الأردنية الهاشمية، 2013م.

9. السراج جعفر بن أحمد: مصارع العشاق، ج2، دار صادر، بيروت، لبنان.

10. سعاد الحكيم: الحب الإلهي والحب الإنساني عند ابن عربي، أطروحة دكتوراة قدمت في معهد العالم العربي - باريس – 1993م.

11. سعاد الحكيم: المعجم الصوفي، الطبعة الأولى، دندره للطباعة والنشر، بيروت، 1980م.

12. شوقي ضيف: الحب العذري عند العرب، الدار المصرية اللبنانية، 1999م.

13. عاطف جودة نصر: شعر عمر الفارض، ط 1، دار الأندلس، بيروت، 1982م.

14. عاطف جوده نصر: الرمز الشعري عند الصوفية، الطبعة الثالثة، دار الأندلس – لبنان، 1983م.

15. عبد الرحمن بدوي: شهيدة العشق الإلهي رابعة العدوية، مكتبة النهضة المصرية، سلسلة دراسات إسلامية، بدون تاريخ.

16. عبد الرزاق الكاشاني: معجم اصطلاحات الصوفية، الطبعة الأولى، تحقيق: عبد العال شاهين، دار المنار، القاهرة، 1992م.

17. عبد الله إبراهيم: المطابقة والاختلاف بحث في نقد المركزيات الثقافية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1 2004م.

18. عبد الله أحمد عجيبة: معراج التشوف إلى حقائق التصوف، تقديم وتحقيق عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء.

19. عبد الله شاهر: البُعد الاجتماعي للحب العُذري، دار معد للطباعة والنشر والتوزيع-دمشق، ١٩٩١م.

20. العربي حسن درويش: قضية الحب العذري في شعر بني أمية. مكتبة النهضة المصرية 1990م.

21. محمد إسماعيل إبراهيم: المعارج القدسية، دار الفكر العربي، القاهرة، بدون تاريخ.

22. محمد فواد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

23. محي الدين محمد ابن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني، د. ط، دار الكتب العربية الكبرى، مصر، د.ت.

24. مرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، مج 6، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1994م.

25. يوسف فرحات: ديوان مجنون ليلى، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 2003م.

Mominoun
MominounWithoutBorders
@ Mominoun_sm

info@mominoun.com
www.mominoun.com